مناحات العراق الجديد: ماركس والمهدي المنتظر والمسيح في مواكب الدموع والبكاء (الاخيرة)

عند تخوم العناق بين الاله تموز والحسين الشهيد يلتقي النائحون: الشيوعيون ورجال الدين والليبراليون والعلمانيون الاحتلال فجر «ثقافة بكائية» تنوح على قتلى الماضي والمجتهدون المعادون للاجتهاد تبنوها تحقيقا لمصالح آنية

فاضل الربيعي*

هل يمكن لنا أن ننظر إلى الغزو الأمريكي للعراق من منظور ثقافي؟ ما أهمية البعد الثقافي لما حدث في التاسع من نيسان/ أبريل 2003؟ في هذه الدراسة الجديدة يعود الباحث والمفكر العراقي فاضل الربيعي إلى تحليل نتائج وتداعيات الغزو الأمريكي للعراق، وهذه المرة من منظور ثقافي من أجل رؤية العلاقة بين السياسة والأساطير.. يلاحظ الربيعي أن الغزو الأمريكي الذي قام في الأصل على سلسلة من الأساطير، هو نموذج فريد في الاستعمار الجديد حيث تتلازم السياسة مع الأسطورة، ويصبح كل شيء خاضعا لمنطق شاذ لا سبيل إلى تفكيك مقولاته..

«القدس العربي»

من تموز إلى الحسين

لم يحدث، قبل التاسع من نيسان (ابريل) 2003، وعلى امتداد التاريخ السياسي والاجتماعي الحديث في العراق، أن شاهد العراقيون قط، مثل هذه اللافتة العملاقة أو عرفوا هذا الأسلوب في المخاطبة.

وبالطبع لم يحدث في تاريخهم أن بزغ مثل هذا الخلط المريع في الأفكار والمعتقدات. لقد امحت الحدود بين الأسطورة والواقع داخل المجتمع العراقي في اللحظة التي امحت فيها الدولة أو تلاشت. ونشأت بدلا من الحدود الطبيعية والتاريخية للدولة، حدود وتخوم أخرى بديلة، مذهبية وعرقية ودينية مقيتة، ولكن داخل المجتمع نفسه الذي غدا منذ الآن، مجموعة من «الطوائف» و «المذاهب» و «الدويلات المسلحة» الفالتة عن كل سيطرة. غير أن العراقيين مع ذلك، ألفوا في تاريخهم الحديث بكل تأكيد، أشكالا من تداعي قوة السلطة أو تراخي قبضة الدولة، أو حتى تمزق هويتهم الوطنية الجامعة. وفي كل الأحوال؛ كان تمجيد ذكرى استشهاد الحسين (ع) وخلال الاحتلالات المتعاقبة للعراق منذ استيلاء الصفويين عام 1513 عندما تم إلحاق العراق بالعرش الإيراني رسميا، يجري كطقس ديني وحسب، وكانت الاحتفالات تفوق الوصف في أبهتها وفي حجم المشاركة الشعبية التي تجتذبها. بكلام آخر، كان الطقس الديني يجري بمعزل عن الحدث السياسي كليا. ولم يحدث أن خلط المحتفلون بهذه المناسبة، بين مصرع البطل التاريخي وسقوط العاصمة في يد الأجنبي. كانت مسألة تحييد صورة البطل الشهيد والحفاظ على طابعها الديني المقدس، تتمثل سلسلة متراكبة من تقاليد الرواية في المجالس الشعبية (مجالس العزاء).

وفي هذا التمثل المطرد جرت وعلى امتداد عقود وعقود، ما يمكن اعتبارها أكبر عملية إعاقة داخل السرد الديني لقصة موت البطل، أمام كل وأي راو، يريد أو يرغب لأسباب مختلفة، باستثمار معاداته المبطنة للسلطة عبر استغلال هذه المناسبة الدينية. لم تكن تقاليد السرد الديني للرواية لتسمح في سائر الأحوال، بدمج السياسة بالدين بهذا الشكل المكشوف. إن المجتمع العراقي بما هو مجتمع تاريخي، يختزن طاقة قديمة ومذهلة على مستوى السرد الديني تمنع تلقائيا وبفضل قوة التقاليد المستمرة أي نوع من التلاعب بقدسية النصوص أو الوقائع، وإلى الدرجة التي يصبح معها من شبه المتعذر أو المستحيل السماح بأي خلط في دلالات ومضامين المناسبة الدينية؛ فإنه رسخ قناعة تامة عند العراقيين من كل الطوائف بأن الأبطال التاريخيين هم أبطال كل المجتمع وليسوا أبطال طائفة بعينها دون أخرى، فأهل السنة والجماعة ـ مثلا ـ يتصرفون مثل الشيعة في عاشوراء، فيقومون بزيارة المراقد المقدسة ويولون الولائم ويقدمون النذور للأئمة ومن دون أي شعور بأن الأئمة يخصون الشيعة دون السنة. ولعل أسماء كثرة هائلة من أهل السنة تشير إلى هذا الجانب بقوة، فهم يتسمون بأسماء (حسين وعلي وحسن ـ ع ـ). وحتى العصر العثماني المبكر، كانت تقاليد العزاء لا تزال قوية، وإن بدت مظاهر الاحتفالات الدينية العلنية على نطاق ضيق وتكاد تقتصر على المدارس والبيوتات الدينية في النجف وكربلاء والحلة والكاظمية في بغداد. التحول الأهم في هذا النطاق حدث ابتداء من الخمسينات من القرن الماضي مع صعود أدوار نخب سياسية جديدة سعت، تحت إغراء الموجات الجماهيرية الكبرى في العالم الرأسمالي وثورات العالم الثالث الاستقلالية، إلى الاقتراب من التقاليد الشيعية وربما التماهي مع رموزها. في الخمسينات من القرن الماضي مثلا، كان الشيوعيون العراقيون يقودون بعض مواكب العزاء في أيام عاشوراء في النجف وكربلاء؛ وكان أكبر هذه المواكب هو الموكب المعروف بموكب طويريج (وهذا اسم مدينة صغيرة من مدن الفرات الأوسط عرفت بمواكبها الحسينية الشهيرة) ولكنهم لم يكونوا قادرين أبدا على استخدام أو استعارة لغة رجال الدين الشيعة. على الضد من ذلك كانوا يعرضون خطابا سياسيا مُصاغا بلغتهم ولسانهم الخاص؛ ولكن بمفردات شعبية ثورية ذات ظلال دينية فلكلورية مقبولة من المجتمع بوجه العموم. إن جزءا من الاستثمار السياسي للمعتقدات الطائفية يقع في حيز الثقافة القديمة داخل المجتمع التاريخي. وبكل تأكيد؛ فإن المجتمعات التاريخية (العراق، سورية، مصر) تظل أكثر قابلية من سائر المجتمعات الأخرى الأقل تاريخية، أي الأضعف من حيث درجة هيمنة التاريخ القديم فيها، على تقبل محاولات الاستغلال السياسي للمعتقدات. بيد أن ما يجعل المجتمع التاريخي في العراق متفردا في هذا الجانب وفي هذه الحالة الفريدة التي أفرزها الاحتلال الأمريكي، أنه لا يزال يختزن بخلاف سائر المجتمعات الأخرى ثقافة بكائية كبرى، لا تزال بدورها مستمرة ومتواصلة.

هذه الثقافة هي التي تبني الإطار لكل سردية عن موت البطل، وتزوده بما يلزم من رموز وطقوسيات وشعائر لأجل الاحتفاء بموته الاستثنائي مهما اختلف العصر وتغيرت الظروف. بهذا المعنى يصبح استشهاد الحسين، وداخل الثقافة القديمة المتواصلة، استطرادا لموت تموز ـ الإله الشهيد في المعتقدات السومرية. ويصبح النواح الجماعي على الحسين امتدادا ثقافيا ولكن بأدوات أخرى، للنواح على تموز. إن ثقافة البكاء العراقية القديمة المتواصلة في الشعر والغناء وطقوس المناحة على الميت، ثقافة قوية تستمد قوتها وسطوتها في المجتمع وربما طغيانها، لا من وقائع حقيقية جرت بالضرورة في أرض الواقع؛ بل من الأساطير أيضا. يرتبط هذا التقدير لقيمة الثقافة البكائية القديمة ودرجة تأثيرها وقوة زخم استمرارها، وبشكل جلي، بتقدير أهمية ما تطرحه من قيم وأفكار ومعتقدات تتصل بتراث جمعي أعم لا يزال فاعلا في المجتمع التاريخي.

من بين هذه القيم والأفكار والمعتقدات التي تعبر عنها ثقافة البكاء، التصور القائل إن البطل يموت لكي يولد من جديد؛ ليبزغ من ظلام الموت إلى نور الحياة تماما كما ينهض تموز من موته، وأن النواح عليه هو نوع من الرجاء الذي يتقدم به المجتمع إلى بطله، من أجل أن ينهض ويهب ثانية ويواصل معركة الخلاص. لقد أصبح استشهاد الحسين، ومن ثم النواح عليه جماعيا، نوعا من طقوسية تتجاوز القصة التاريخية لصراعه ضد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، ولتبلغ هدفها القديم والمتواصل: التعبير عن عقيدة انتظار المخلص. وعند تخوم هذه النقطة أيضا سوف يلتقي النائحون: شيوعيو التاسع من نيسان (ابريل) ورجال الدين الشيعة والليبراليون والعلمانيون.

ومن دون شك؛ فإن المصالحة التي عرضتها لافتة شارع المتنبي بعد سقوط بغداد في قبضة الاحتلال الأمريكي، بين العلمانيين وجمهور المتدينين الشعبيين، بدت وعلى الفور وكأنها مُصممة لغرض آخر ومختلف لا صلة له بالمصالحة أصلا، بمقدار ما له صلة بنمط انتهازي ومفضوح من تكتيكات التقرب والتزلف للجمهور العام. وعلى الأرجح؛ فإن الجمهور الذي توقف وأمعن النظر في كلمات اللافتة أدرك بذكاء فطري لا تعوزه الفطنة طابعها الوظيفي الانتهازي، فالمصالحة المعروضة عليه يُراد لها أن تتم داخل حيزه الخاص والميثولوجي، وليس داخل الواقع المعقد والمركّب الذي ضاعفت الفوضى العارمة من مأسويّته. وربما خامر الجمهور إحساس مفعم بالإحباط أن هذا الحيز لم يعد بعد الآن صافيا وحرا؛ بل لن يعود كذلك بعد اليوم وذلك مع تزايد أعداد المستلبين من رجال دين وليبراليين وعلمانيين متأمركين. لقد تحول الواقع إلى أسطورة بينما تحولت الأسطورة إلى واقع.

على هذا النحو يبدو الواقع الذي تم تجريده أي تحريف عناصره، وكأنه أصبح مادة من المواد المنهوبة أو التي تعرضت للسرقة في وضح النهار. وكان على الجمهور العام أن يخوض قتالا ضاريا لكي لا تنتزع الأساطير من بين يديه. وهذا ما عكسته بدقة سلسلة ردود الأفعال التي صدرت في مواجهة هذه المحاولات المخادعة. كانت الأساطير في تلك اللحظات العصيبة والساخرة، تتلوث بفايروس السياسة وتتلطخ بشعاراتها وصورها ولافتاتها العملاقة. إنها الحيز الذي بات مُتداخلا مع حيز السياسة وامتدادا لها وعلى نحو يصعب أو يستحيل فك الترابط بينهما. ومع هذا كله، لا تخلو عبارات اللافتة من البراعة والذكاء اللذين يدلان على التصميم المُتقن لمضمون وأسلوب المخاطبة. فبفضل هذا النوع من التملق الدعائي للجمهور الشعبي، يمكن للسياسيين الانتهازيين في فترات السلم والهدوء، كما في الأحداث ذات الطابع الهلعي، أن يقوموا بمُماهاة ماكرة للغتهم (لسانهم) مع لسان المُخاطبين. وفي هذه الحالة فقط، ستبدو لغة اليساريين المزيفين والعلمانيين المتأمركين، وكأنها مادة لزجة ولكن قابلة لأن تذوب، في النهاية، أو تتحلل وتنصهر داخل خطاب شديد الحرارة يفور كالمرجل داخل لغة نارية، صاخبة وخلاصية؛ هي كل عدّة رجال الدين الشعبيين وذخيرتهم الثقافية.

وفي هذه الحالة كذلك سيتحول الإيديولوجي الشيوعي، المبتهج والسعيد بالحرية والخلاص من الديكتاتورية (حتى وإن أدى ذلك إلى قتل مليون مواطن) إلى شيخ طريقة أو (ملا) شيعي أو «روزخون ـ كلمة فارسية تعني راوي روايات شعبية»، مثله مثل رجل الدين الذي كان يهرول إلى الشوارع لقيادة تظاهرات البكاء والندب الجماعية في ذكرى استشهاد الحسين. بيد أن هذا التحول الزائف في الشخصية الجديدة لشيوعيي التاسع من نيسان (ابريل)، والذين خطوا بأيديهم وأفكارهم وسلوكهم لافتة شارع المتنبي؛ سوف يتكشّف في المقابل عن وهم فظيع، هو نتاج انتهازية فكرية بالدرجة الأولى لا مجرد خطأ سياسي. صحيح أن شيوعيي التاسع من نيسان (ابريل) سيتمكنون بسرعة من تقمص الدور الوظيفي الجديد لهم، بوصفهم من منتجي الأساطير الشعبية، لا مجرد رواة أو مروجين شعبيين لها وحسب، وصحيح كذلك أنهم سيتمكنون من لعب هذا الدور بشيء من البراعة والإتقان، وقد يتمكنون بالفعل من التقرب لأوساط جماهيرية بعينها؛ ولكنهم سرعان ما سيكتشفون ـ كما بينت انتخابات 30 كانون الثاني (يناير) 2005 بجلاء لا نظير له ـ أن حصتهم من هذه الجماهير التي تملقوا معتقداتها التقليدية وأساطيرها، وبالرغم من كل أساليب النفاق والتزلف، لن تتجاوز في ظل التنافس المحموم مع أحزاب الطائفة الشيعية ـ سوى أقل من 1 بالمئة (في هذه الانتخابات لم يحصل الشيوعيون إلا على أقل من 70 ألف صوت).

كانت الجماهير الشعبية تستعد مثل النخب العلمانية المنفية والعائدة إلى بلادها مع الاحتلال، للعودة إلى حقل السياسة بعد أن أقصيت عنها لوقت طويل وها قد حان موعد عودتها الظافرة. وعندئذ حدث ما يمكن اعتباره بداية كبرى ومذهلة وذاتٌ بُعد انعطافي غير مسبوق من أجل استثمار مزدوج للميُثولوجيا داخل حقل السياسة، من جانب النخب العلمانية والجمهور الشعبي ورجال الدين على حد سواء. وفي حين كان هناك ـ من بين المنفيين ـ علمانيون يعودون إلى السياسة ولكن من خلال تملق الجماعات الدينية وذلك عبر الإيحاء بأنهم يقبلون اليوم وبعد تمنع طويل، اعتبار المناسبة الدينية القديمة والتراثية ـ استشهاد الإمام الحسين ـ مناسبة سياسية معاصرة وراهنة ومستمرة، ويوافقونهم فوق ذلك على أن ظلالها الأسطورية التي أنشأها الرواة على مر العصور، إنما هي ظلال واقعية وتاريخية صادقة وصحيحة وواقعية، فقد كان هناك على الطرف الآخر رجال دين يخترقون حقل السياسة بأدوات ووسائل ومواضيع دينية من نوع جديد وغير مألوف. كان هناك استغلال مثير للسطوح الميثولوجية التي تطفح بها رواية استشهاد الحسين، مثل فكرة العطش والحصار والعذاب الذي طاول الأسرى أثناء اقتيادهم من العراق إلى بلاط الخليفة الأموي في الشام.

ومن بين أكثر هذه السطوح جاذبية، استغلال المنطلقات الفقهية لعقيدة انتظار المخلص وذلك عبر الربط و المماثلة ـ داخل فضاء الاحتفال الطقوسي بين صور الضحايا. كان الضحايا الجدد يظهرون كامتداد لضحايا تلك الواقعة التاريخية القديمة. ولذا ظهر فجأة آلاف الشبان وهم يرتدون قمصانا سوداء وراحوا يملأون الشوارع بالنواح فيما السلاسل الحديدية تلسع ظهورهم.

ارتبطت عقيدة المهدي المُنتظر (المخلص) في هذه الآونة، وأكثر فأكثر بفكرة وجود استطراد ثقافي حقيقي للضحايا داخل المجتمع: إنهم متماثلون ومتشابهون. مأساتهم واحدة وقمصانهم ذات لون واحد. لقد تجسدت هذه المماثلة بكل بلاغة مع إعلان مقتدى الصدر عن تأسيس جيش شعبي باسم جيش المهدي، وذلك في أعقاب إعلان بول بريمر الحاكم المدني الأمريكي عن حل الجيش العراقي الرسمي. وعندئذ بلغ الاستغلال ذروته. (سوف يلعب جيش المهدي دورا بارزا ومثيرا للجدل في الصراع المسلح ضد الاحتلال طوال الأشهر التالية). على الطرف الآخر كان التملق يبرز في أفظع صوره وأشكاله من خلال الطريقة التي تصرف فيها العلمانيون والليبراليون العائدون مع الاحتلال، إزاء اكتشافهم المتأخر لفعالية الأساطير في الوسط الشعبي، وهو اكتشاف سخيف ـ في الواقع ـ لأن الميثولوجيا كانت تلعب على الدوام دورا مذهلا في فعاليته داخل الأوساط الشعبية. إنها المحرك الجبار للمشاعر والأفكار والرؤى والتصورات. إن المرء لتنتابه الحيرة، حقا، حين يلاحظ في هذا السياق، كيف أن العلماني (الشيوعي) العائد من المنفى بمساعدة الأمريكيين، وفي إطار محاولته إغراء الجماهير بجاذبيته الشعبية، قد وجد نفسه مثله مثل الليبرالي والعلماني الحداثي، مُضطرا للاستسلام دون تحفظ لإغراء معكوس ومُضاد: إغراء الأساطير. وبالفعل؛ فإن لافتة شارع المتنبي تعبر بدقة بالغة عن مغزى ودلالات هذا الإغراء المعكوس للميثولوجيا، فهو إغراء موجه من الجمهور الشعبي صوب النخب، وليس العكس؛ وهو يجذب النخب العلمانية لا الجمهور الشعبي وحده. كما يعبر بدقة بالغة عن درجة وشدة التبدل في النظرات التقليدية للنخب إزاء الميثولوجيا؛ بل وفعاليتها المفاجئة وجاذبيتها في أوساط النخب العلمانية التقليدية والحداثية. ها قد وجدت النخب أن تصوراتها النمطية والسكونية القديمة إزاء الأسطورة والرواية الشعبية والدين، وخلطها الساذج بين الخرافة والأسطورة، وخلو خطابها الثقافي من أي تحليلات حصيفة للتاريخ المحلي، إنما هو خلل فاضح في ثقافة يسارية تأسست على الادعاء بأكثر مما تأسست على المعرفة. وبالطبع يمكن لمثل هذا الخلل الفاضح في بنى الثقافة، أن يكون من بين أسباب عدة متراكبة ومتشابكة أخرى لعبت بالضد من تطلعات النخبة إلى دور حقيقي في المجتمع. وها هي تصبح جزءا من الجمهور الشعبي وتتماثل معه؛ بدلا من أن تلعب دورا رئيسيا في قيادته. إن التصورات النمطية هي التي كانت تحدّ من قدرات هؤلاء على إدراك الواقع. إن الطريقة التي باتت النخب العلمانية إدراك الواقع والحداثية تكتشف من خلالها، ومع وقوع البلاد في قبضة الاحتلال الأمريكي، طاقة الميثولوجيا في السيطرة على الجماهير؛ مجرد طريقة للتعبير عن استسلام النخب أمام إغراء سلاح يملكه الخصوم، ولا يملكه هؤلاء العلمانيون، وأن محاولة انتزاعه من أيديهم لتبدو ضربا من الوهم والعبث.

كان السؤال المحيّر الذي دار على كل الألسن والشفاه هو:

إذا كان الغزو قام أصلا على دعاوى الحداثة والديمقراطية؛ فلماذا وكيف تحول العلماني والليبرالي والحداثي إلى رجل طائفة يؤمن بالأساطير مثله مثل رجل الدين؟ إن فكرة التضحية في الثقافة السياسية العراقية هي من بين أكثر الأبنية والأنساق الفكرية ذات القابلية على التجديد؛ بل والأكثر مركزية في الثقافات الوطنية في المنطقة. بيد أن فكرة التضحية هذه تبدو في الفقه الشيعي ذات خصوصية مثيرة. إنها الفكرة الوحيدة المولدة لفكرة الامتياز. إن ما يميز الشيعي المعاصر ـ طبقا لنظام التأويل الشيعي السائد ـ هو امتلاكه لامتياز التضحية الذي يمكنه من أن يصبح مفارقا ومختلفا ومتفردا. تضحيته لا تشبهها تضحية، وشعوره بفداحة الظلم لا يضاهيه أي شعور آخر. ولم لا ؟ وتضحيته تبزغ في كل لحظة من لحظات حياته اليومية، من قلب الأمثولة الكبرى والمركزية: استشهاد الحسين بن علي. وحسب هذا المعتقد، فليس ثمة مظلمة في الأرض والتاريخ تساوي مظلمة الحسين، وبالتالي ليس ثمة ما يضاهي مظلمة الشيعي، مقلده والسائر على دربه. إن ما يجمع ـ داخل منظومات الفقه الشيعي القديم والمعاصر ـ بين أمثولة التضحية التاريخية التي تجسدها شخصية الحسين بن علي وبين كل تضحية أخرى، واقعية أو أسطورية، إنما هو النسق نفسه الكابل للتجدد. بيد أن الفقه الشيعي أقام في إطار هذه المقاربة تمييزات مذهلة في صرامتها؛ فكل تضحية أخرى مهما كانت منزلة المضحى، عدا تضحية الحسين بن علي، تظل اقل قداسة وطهرانية ومأسوية. إنها التضحية الفريدة والمتميزة والاستثنائية التي لا ينبغي عبور منطقتها الخاصة من دون التطهر بأمثولتها التاريخية. ليس ثمة تضحية مركزية ـ داخل النسق الفكري للتأويل الشيعي التقليدي ـ سوى تضحية الحسين. ولذا ستتماهى فيها كل تضحية أخرى. ولذا تصبح لافتة شارع المتنبي استطرادا في محاولة إنشاء مرجعيات ثقافية محلية وجماعية جديدة، ذات طاقة على تشكيل و إبراز الوحدة العضوية بين أفراد تفككت، أو تلاشت الروابط الاجتماعية والفكرية بينهم. إن العلاقة بين الجماهير بما هي كتلة هلامية تحللت من طبقات شتى، وبين السياسة بما هي مجال عام للنشاط الفردي والجماعي، لا تنبني دائما طبقا لنزوع أصيل عند الأفراد لتطوير أشكال اتصالهم ومشاركتهم في الحياة العامة، وإنما تنبني أيضا وفقا لاحاجات ثقافية مباشرة؛ إذ غالبا ما يشعر هؤلاء بأن السياسة هي المجال الوحيد الذي يمكن فيه إعادة بناء الروابط التي تفككت مع الآخرين.

الأساطير وصناديق الاقتراع

مع الاحتلال الأمريكي أصبحت صناديق الاقتراع ـ في العراق الجديد ـ رهنا بالطريقة التي يمكن فيها استغلال المعتقدات الدينية الشعبية. من منظور العلاقة بين السياسة والميثولوجيا في عراق محتل؛ فإن احتلال بغداد كشف بصورة مذهلة كيف أن مجتمعاتنا المعاصرة لا تزال تعيش في قلب الماضي بالفعل، وأن التاريخ لا تصنعه العقائد والأهداف الكبرى ولا الأفكار الجديدة فقط، وإنما تصنعه المعتقدات الشعبية القديمة والأساطير أيضا؛ وهذه لها طاقة مذهلة على تحريك الحشود وفي توجيه المشاعر الجماعية إزاء الأحداث الهلعية والمأسوية. إن دراسة مثال الفتوى التي أصدرها مكتب آية الله السيستاني قبيل انتخابات 30 كانون الثاني (يناير) 2005 والتي زُعم على نطاق واسع في العراق أنها صادرة بالفعل عنه شخصيا، لا عن مكتبه ودعا فيها العراقيين إلى المشاركة بكثافة في الانتخابات وتحذيرهم بشكل صارم: من لا يذهب للتصويت سوف يرمى في نار جهنم يوم القيامة ـ كما يقول النص المزعوم الذي تم الترويج له في صحف بعض الأحزاب الدينية ـ ؛ من شأنه أن يبين كيف أن هذا التحذير وبخلاف ما هو متوقع أو معتاد في المناورات والدسائس السياسية، لعب دورا مذهلا في حفز الجمهور الشعبي على المشاركة، كما لعب دورا حاسما في السيطرة على إرادته وتوجيهها. انتشرت فتوى آية الله السيستاني (أو المنسوبة إليه) والتي استغلها أنصار الحكيم بسرعة مذهلة (برغم كل المحاولات التي قام بها الكاتب لم يتمكن من الحصول على نص رسمي بختم المرجع الأعلى كما هو مألوف في الفتاوى الشرعية وهو يستطيع أن يؤكد أن الفتوى ملفقة وأن محمد رضا ابن آية الله السيستاني قد تكون له صلة بالأمر). وهذا يدلل على أن النص الموزع لم يكن نصا رسميا وقد يكون من تدبير أحد أعوانه أو من العاملين في مكتبه، وربما من تلفيق المراجع الشيعية الأخرى التي كانت تنسج خيوط علاقات ومصالح مالية وسياسية متشابكة مع جماعة الحكيم. ومع ذلك، وبصرف النظر عنه، فإن فكرة إدخال عنصر الترويع وتخويف الناخبين بسلاح الأساطير والخرافات، هو تطور مثير في شكل التنافس السياسي. ما علاقة الديمقراطية وصناديق الاقتراع بنار جهنم؟ ولماذا اضطرت أكبر قوة علمانية في التاريخ (الولايات المتحدة الأمريكية) إلى الاستخدام الخفي للميثولوجيا الشعبية، حتى في أدنى مستوياتها الوظيفية وأكثرها ابتذالا، كأداة ضغط على مجتمع أبدت فيه الكثير من الطوائف والجماعات السياسية الممثلة له، نوعا من التمنّع شبه الجماعي، إزاء فكرة قبول انتخابات تحت الاحتلال؟ ما من احد يمكنه أن يجد أساسا لمواءمة فكرة الديمقراطية مع الضغط (أو التهديد) الديني للناخبين والتلويح لهم بعقاب سماوي إنْ هم لم يذهبوا إلى صناديق الاقتراع. ومع ذلك تغاضت الولايات المتحدة عن هذا الاستغلال وقامت بتشجيعه. وفي العديد من الحالات التي تم الكشف عنها، تبين أن رجال دين شيعة كانوا يحرسون صناديق الاقتراع في مناطق الجنوب ـ الشيعي ـ سوية مع جنود الاحتلال الأمريكي؛ وقاموا بتوجيه تحذيرات شفهية مباشرة إلى كل ناخب: إنْ لم تصوت لقائمة الائتلاف الموحدة ـ قائمة رجال الدين ـ فإن (زوجتك تحرّم عليك). يعني هذا أن كل ناخب قد يفكر في الامتناع عن التصويت للقائمة الدينية لأسباب شخصية أو دينية أو فكرية أو سياسية؛ سوف يجد نفسه بحكم الفتوى مضطرا إلى تطليق زوجته، أو الامتناع عن الاقتراب منها بعد الآن لأنها باتت محرّمة عليه دينيا ؟ كان للربط الماكر الذي قام به بعض رجال الدين في العراق؛ بين فكرة الدنس ـ الحرام ـ من جهة، والتصويت في الانتخابات من جهة أخرى، أثره الفعال في إنشاء مقاربة جديدة داخل الفقه الديني لم يكن لها أي أساس إسلامي تشريعي أو سند ديني في الماضي، ولكنها ستجعل من «الفقه الشيعي» السياسي من الآن فصاعدا، أكثر عناية واهتماما بالمصالح الانتهازية لطبقة رجال الدين أنفسهم؛ الذين رأوا في الانتخابات ومن خلال غض البصر المتعمد عن الوقائع التي فرضها الاحتلال، أو حتى تجاهل وجوده المقيت، فرصة مثالية ونادرة لامتلاك المزيد من النفوذ الاجتماعي والسياسي على حساب المصالح العليا للمجتمع. لقد ابتكر بعض رجال الدين من خلال فتوى السيستاني، أو من خلال استغلالها بكلام أدق، نوعا من الفقه السياسي هو في النهاية مزيج غريب من الميثولوجيا والسياسة. ومع ذلك فإن هذا الخليط الجديد هو الذي تراهن على فعاليته طبقة رجال الدين، وبحيث يتيح لها باستمرار، إمكانية الاستحواذ على المال والنفوذ والسلطة في المجتمع، وأن تصبح قوة لا يمكن التنازع معها.

وفي الحالة العراقية، فقد صمم هؤلاء على لعب أدوارهم في حقل السياسة كقادة دينيين لا كقادة سياسيين. أي كقوة دمج هائلة السطوة والجبروت، بوسعها مع كل حدث هلعي أو أزمة وطنية أن تدفع المجتمع بأسره ومن دون أدنى تردد للسير خلف أساطيرها. إن هذا المعطى المأسوي هو من بين أكثر نتائج وتداعيات الاحتلال الأمريكي ـ على المستوى الثقافي ـ خطورة وتأثيرا في وعي أجيال قادمة من العراقيين. خلق هذا الواقع ـ كما في الحالة العراقية الراهنة ـ سلسلة غير منقطعة من الأزمات، من بينها تلك التي تتصل بالطريقة التي يتوجب فيها رؤية الواقع نفسه. لن يعود الواقع واقعيا بعد الآن، كما لن تعود الأساطير أسطورية. ثمة شيء آخر سيبدو قابلا للحلول محلهما هو الخليط ذاته الذي ينتجه رجال دين لا حدود لجشعهم وحبهم للمال والنفوذ. ولأن كلا من «الشؤون الدنيوية» والدين في تاريخ المرجعية الشيعية بالنجف هما، في نهاية المطاف، موضوعان منفصلان لا يجوز الخلط بينهما أو دمجهما؛ فقد بدا الخلط المتعمد الذي أبرزه مثال الانتخابات، محاولة ماكرة للتلاعب لا بالفقه الديني؛ بل بالتاريخ الاجتماعي والسياسي في المجتمع كله. ونحن نعلم أن هذه المرجعية ظلت ولقرون عدة تحافظ على تقاليد صارمة، جرى من خلالها وبفضلها التركيز على أن عمل طبقة رجال الدين الكبار في النجف وكربلاء والكاظمية ببغداد، وعمل رجال الدين الصغار المحيطين بهم (الوكلاء، الموزعين، الدعاة، طلاب المدارس الدينية) إنما هو العناية القصوى بأمور الدين والابتعاد عن أمور الدنيا. ذلك ما يكشف عن البُعد النموذجي لتداخل الميثولوجيا بالسياسة في العراق المحتل لقد غدتا منذ الآن حقلا واحدا مُدمجا ومتشابكا على نحو يصعب تفكيكه. كان ترويع الناخبين العراقيين وأغلبهم من أبناء الشيعة الفقراء في الجنوب والوسط وأجزاء من بغداد، من عواقب عصيان فتاوى رجال الدين وعدم التصويت للقائمة الدينية الطائفية المدعومة بقوة من إيران؛ بما في ذلك التهديد بخطر جهنم وحرمانهم من الاقتراب من زوجاتهم؛ مجرد نموذج عن الطريقة التي سوف يتصرف فيها هؤلاء إذا ما وفرت لهم الظروف والأحداث كذلك، وبالطبع السياسات الانتهازية للطبقة السياسية وتنافساتها، وحتى مناوراتها الخسيسة التي أضحت من قواعد اللعبة؛ إمكانية لعب دور أكبر في حقل السياسة وفي حياة المجتمع.

وهذا ما أراده الأمريكيون وسعوا إليه من خلال غزوهم للعراق. إن العودة إلى العلاقة بين العقيدة الإمامية في الفقه الشيعي، ودور المرجعية في النجف من جهة، وبين مسائل الديمقراطية والسلطة والسياسة من جهة أخرى، يمكن أن تكشف عن إشكاليات جديدة تنجم عن الدمج العضوي للميثولوجيا بالسياسة؛ إذ بفضل هذه العلاقة تصبح للمرجع الديني صلاحيات مطلقة خارج نطاق الدين، ويغدو هو نفسه مرجعا سياسيا بديلا عن المؤسسات الديمقراطية، التي يُفترض أنها نتاج العقلانية الغربية والعلمانية.

نهاية عصر النص

واحدة من هذه الإشكاليات تتصل بمفهوم الديمقراطية. لقد عاشت أوساط المرجعية التقليدية في النجف (الحوزة) تاريخيا؛ ما يشبه حالة الذعر شبه الجماعي من كلمة الديمقراطية التي كانت في مناسبات وظروف مختلفة تجسيدا لهيمنة الآخر (الغرب). ما من رجل دين في الخمسينات من القرن الماضي، حين أصبحت هذه الكلمة متداولة على نطاق واسع في الشارع العراقي مع صعود أدوار الشيوعيين، أو ما عُرف بحقبة المد الأحمر؛ إلا وكرّس جزءا هاما من خطبه ودعاواه لنقد «الديمقراطية» بوصفها كلمة شاذة وشيطانية مرادفة تماما لكلمة «الشيوعية». كان عداء رجال الدين الشيعة لكلمة الديمقراطية والنفور منها، عداء شاملا يفوق التصوّر وإلى الدرجة التي أضحت فيها موضوعا من موضوعات نقد الغرب وماديته؛ ولذا أرسى الخطاب الشيعي في الشطر الأهم منه سياسيا على أساس نقد الديمقراطية، والعداء لها كرديف شاذ ومقيت للغرب وللشيوعية على حد سواء. وهذا ما عبّر عنه ببلاغة الفيلسوف الشيعي الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه الشهير (فلسفتنا). يقوم كتاب (فلسفتنا) الذي يأتي مكملا لكتاب آخر هو (اقتصادنا) على فكرة ساذجة لا أساس لها لا في الفلسفة ولا في الاقتصاد، مفادها أن بالوسع استنباط قوانين فلسفية واقتصادية خاصة بالمسلمين المعاصرين، متفرّدة وعبقرية وذات خصوصية شديدة لا علاقة لها لا بتطور الفلسفة ولا بتطور الاقتصاد العالمي؛ وأن هذا الاستنباط ممكن وحقيقي إذا ما عدنا إلى الحلول والنظرات الفلسفية والمعالجات الاجتماعية في تاريخ الإسلام والدولة الإسلامية. وحين ربط الفيلسوف الشهيد بين نقد الفلسفة الماركسية ونقد الديمقراطية (نبذها ومقتها بكلمة أدق) فقد انتهى إلى تقرير حقيقة لا تزال حية وقوية في الخطاب الشيعي التقليدي، مفادها أن فلسفتنا واقتصادنا هما على التوالي، شيئان متفردّان وعبقريان وخاصان بنا، وأن ماركسية الغرب «المادي وديمقراطيته» الشاذة هما بالتعاقب نتاج حضارة مناوئة لنا. ثم نهض الخطاب الشيعي منذ كتابي الفيلسوف الصدر على أساس مناهضة فكرة الديمقراطية بصورة سافرة، ومقاومتها من حيث هي فكرة ومبادئ عامة في الحكم. بكلام ثان نُظر إلى الديمقراطية على أنها شيء مماثل لدم الحيض (نجاسة) أي مادة متحولّة من مادة أخرى بشرية، يمكن معارضتها دوما بمادة إلهية غير متحولّة هي التشريع الإسلامي. وفي الواقع لم تحدث أي زحزحة ذات قيمة في منظومة الأفكار السكونية الكبرى في الفكر الشيعي المعاصر، ومنها تلك المتصلة بشكل وأسلوب الحكم، الذي كان يرتبط أكثر فأكثر برفض فكرة الديمقراطية كمنتج ثقافي غربي. فما الذي حدث ؟ وما الدوافع الحقيقية للتبدل في هذا الخطاب الذي أصبح مفتونا بكلمة الديمقراطية؟

الأمر المثير في تطور الفكر الشيعي في العراق وتطور الرواية الميثولوجية في الخطاب الديني، ثم تبلور الصور الأولى لعلاقة الأساطير بالسياسة في إطار هذا الخطاب؛ أن من قاموا بالمحاولات الأولى والكبرى لإرساء قواعد المذهب الشيعي (ما بعد الجعفري أي ما بعد نظرية الإمامة) استخدموا بشكل منظم مواد الخزان الأسطوري والتاريخي، وشرعوا بعملية تدوين هائلة للأحاديث المنسوبة إلى النبي ـ ص ـ والخاصة بأهل البيت، وعلى نحو أخص تلك التي ترفع من شأن علي بن أبي طالب عليه السلام ـ ورضي الله عنه ـ بين سائر الصحابة (ما يعرف بالأصول الأربعمئة) وأن هؤلاء كانوا ينتسبون إلى طبقة رجال الدين «المجتهدين». وهؤلاء كانوا، ويا للمفارقة من الذين نبذوا أي شكل من أشكال الاجتهاد مع وجود رواية أو حديث مسند. أي أنهم قادوا تيارا مناهضا لكل تجديد أو اجتهاد في الفكر الشيعي حتى وهم يقومون بإرساء قواعد هذا المذهب. وهكذا، فالذين كانوا ينبذون كلمة الديمقراطية بالأمس القريب، كانوا هم أنفسهم الذين نبذوا في الماضي (نحو 850 ميلادية) فكرة الاجتهاد في الدين من أصلها. لقد كانوا يمثلون تيارا رجعيا معاديا للتجديد داخل المذهب الجعفري. ولكن، بعد عقود قليلة فقط، سوف يصبح أتباع هؤلاء وتلامذتهم ويا للمفارقة، من أنصار الاجتهاد ومن علمائه؛ بل وسوف يحملون ألقابا تقرّبهم من صور المجتهد المجدد والحريص على تطوير الفقه الشيعي؛ وإلى الدرجة التي أصبحوا فيها